المقدمة

الحمد لله رب العالمين الذى أنعم على الإنسانية بنعمة القرآن الكريم ليكون هاديا لهم إلى السلوك المستقيم.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، الذى علم السائرين إلى منازلهم، وعلى آله الطيبين الطاهرين.

أما بعد،،

فإن لله سبحانه وتعالى نعمًا تطالع الناس صباحهم ومسائهم، وتحيط بهم من فوقهم، ومن تحتهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم. منها المنظور المستور، والمعلوم والمجهول. تفيض عليهم بآثارها الملموسة فى أنفسهم، وفى آفاقهم.

وفى طليعة هذه النعم التى أفاضها الحق تعالى على عباده نعمة الحياة والإيجاد، نعمة الخلق، والإمداد، والإعداد، مما غدا به الإنسان أعظم آية من آيات الله فى خلقه، تشكل أروع أداة للدلالة على وجود الخالق البارئ المصور، وضرورة الإيمان به والاعتراف بفضله، ووجوب التحية إليه وحده، بما وجب فى حقه من الإجلال، وحتمية استشعار عظمته، وسلطانه، وتعميق الخضوع له، والخشية منه، وتأكيد الحب فيه، والولاء له، ووجدان الأنس به، والاسترواح بذكره، والشوق إلى لقائه، والسكينة إلى جواره.

تلك هى العبادة الواجبة لله عز وجل. لا يجد الإنسان كيانه إلا فيها، ولا امتداده إلا بها، ولا وجوده إلا فى الالتزام بها قولا وعملا، أمرا ونهيا، خلقا وسلوكا، واقعا وتطبيقا. . لقد غداالإنسان للكون سيدا فلا أقل من أن يمضى لله عبدا، ولحق الله تابعا. . .

إن الوجود كله عابد بطبيعته، منصاع لوظيفته. لا يسعه إلا أن يطيع ربه فى ولاء لا يشوبه استنكاف، ولا يطاوله تأب.

بل إنه جميعا من أعلاه إلى أسفله، يهتف فى البداية من عالم الأزل بلغة المقهور أمام عظمة القاهر... وهتاف العابد أما قدسية المعبود بما سجله الحق فى قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت، الآية رقم ١١].

والإنسان - وإن كان يساوق الكون فى العبادة بفطرته، فإنه ينبغى عليه أن يفوقه فى العبادة منزلة، وأن يعلوه فيها درجات تتناسب وحقيقة الفرد، وتكوينه المتميز بالعقل والإرادة، والاختيار، والميول، والنزعات، والرغائب.

وأن يكون لهذه العبادة الاختيارية نمطها الخاص الذى يواكب الفطرة.

إن العبادة حق الله على عباده، ما خلقهم الله إلا لها، ولا رضى عنهم إلا بها. وما زاولوها، ومارسوا شعائرها فى إخبات وخشوع، وفى تذلل وخضوع، وخوف منه، يشفعه الرجاء، وتضرع إليه يحدوه الأمل، وعرفانا له بحقه عليهم وواجبهم نحوه، مستبقين فى حلبته، مسارعين إلى خيره..

إلا أبدلهم الله من الضيق فرجا ومن الشدة مخرجا، ومن القلق اطمئنانا، ومن الخوف أمنا.

ثم غفر زلتهم، وأقال عثرتهم، وقبل أوبتهم، ورحم ضعفهم، وجبر كسرهم، وأخلف لهم ما بذلوا، وضاعف لهم ما عملوا، ويسر لهم أسباب قبوله، وفتح لهم أبواب رضوانه، فجمع بهم أطراف الخير، وجلعهم فى شرف قربه وجواره.

والحق أن السلوك إلى رب العالمين هو الشامة الدائمة التى بها يقف الإنسان من ربه على مكانته، متفاعلا ماضيا فى طريق الله الذى خطه له، وأرشده إليه وهداه به..

والسلوك إلى رب العالمين هو الشامة الدائمة التى هى ضرب من الخضوع بالغ حد النهاية، ناشئ عن استشعار القلب عظمة المعبود.

وليس عند القلوب المؤمنة، والأرواح الطيبة، والعقول الذكية: أحلى، ولا ألذ، ولا أطيب، ولا أسر، ولا أنعم من محبة الله، والأنس به، والشوق إلى لقائه. وكلما كانت المحبة أكمل، وإدراك المحبوب أتم، والقرب منه أوفر، كانت الحلاوة، واللذة، والسرور، والنعيم أقوى.

وإن من الحقائق التى لا مرية فيها: أن الإنسان لا يتأتى له أن يلج باب الله، أو يسير فى الطريق إليه.. إلا بالعبودية الخالصة لله وحده لا شريك له..

فإذا ما تمخضت العبودة لله سبحانه، وأصبح الإنسان من عباد الله المخلصين، وحقق بذلك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإن الله سبحانه لا يجعل للشيطان عليه من سبيل.

وإذا ما حقق الإنسان العبودية، فإن الله يتولاه. إنه سبحانه وتعالى يقول عن موسى وفتاه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف، الآية رقم ٦٥].

إنه حقق العبودية، فكان ثمرة ذلك أن يغمره الله بالرحمة، وأن يفيض عليه بالعلم. وليست المعرفة وحدها هى ثمرة التحقق بالعبودية، بل إن للتحقيق بالعبودية ثمارا كثيرة سامية..

ولقد حقق رسول الله ﷺ العبودية كاملة تامة.. لقد حققها فى ذروتها.. فكانت صلاته، وكان نسكه، وكانت حياته بأكملها، وكان موته لله رب العالمين لا شريك له: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام، الآية ١٦٢-١٦٣].

والإسلام الحنيف قد حرص على إحاطة الإنسان بمناعات عقدية وخلقية وتربوية تحول دون أن يتأثر هذا الإنسان بالمغريات أو التيارات التى تنال من كرامته، أو تحط من مكانته..

كما زود الإسلام بمضادات ذات قيم فعالة، تعالج ما قد يبتلى به من إصابات سلوكية تؤدى به إلى الهاوية، أو تنجم عنها أعراض وخيمة.

ذلك لأن فى الإنسان (قابلية التأثر) وهو يملك (القدرة على التأثير) فكان لا بد من صيانة قابلية التأثير لديه. لكى لا يكون مجالا رحبا للمؤثرات الخارجية المنافية للفطرة السليمة، والذوق الرفيع والكمالات الإنسانية.

ولأن الإنسان يملك القدرة على التأثير فيما حوله أصبح من الضرورى أن يظل هذا الإنسان سليما لتظل تأثيراته سليمة وصحيحة.

فالنظرة الشمولية التى يرتكز عليها الفكر الإسلامى فى تقويم السلوك الإنسانى تقرر: أن هذا السلوك ينعكس لا على حياة الإنسان فحسب، بل على الموجودات كافة بشكل مباشر أو غير مباشر.. إذ ما من طاقة إلا ولها أثر؛ لذلك اهتم المنهج الإسلامى بالسلوك باعتباره العامل الحاسم.

يقول أحد العلماء: والإسلام يعتمد فى توجيه السلوك البشرى على موضوعية الأخلاق، وفطرية البصيرة التى ندركها فى بساطة ونقاء.

وفى الوقت نفسه تزود الإنسان بالطاقة والقدرة وتنفخ فيه العزيمة والإرادة للوفاء بمقتضاتها، وتتدخل فى الأحوال التى تلتبس فيها الأمور على هذه البصيرة الفطرية أو التى تغلب فيها الشهوات والرغبات البشرية لتجلو وجه الحق، وتبرز معالم الخير والبر.

ومن هذه الناحية تلبس الأخلاق ثوبها الإسلامى، وتصطبغ بالصبغة الإسلامية، ويصبح الوفاء بمقتضاتها، والتمسك بقواعدها، مبنيا على المعنى القائم بالعقيدة.

بحيث يجد الإنسان فى امتثال هذه الأخلاق الإسلامية توافقا بينه وبين عقيدته يبعث فى نفسه الرضا والاطمئنان والاستقرار.

وأجلاء الصالحين قد اتخذوا من سلوك النبى ﷺ نبراسًا استضاءوا به، فاستخلصوا من حياة الرسول ﷺ سلوكا تسامى بهم..

وإن الاقتداء برسول الله أساس أصيل لسلوك المؤمنين إلى الله.. قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً** ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب، الآية رقم ٢١].

فلا شيء يفيد الإقناع واليقين كرؤية الشيء ماثلا متحققا، ، وتحقق السلوك إنما يتم عن طريق وجود القدوة أو المثل الكامل، ولقد كان رسول الله ﷺ أعظم حافز لمن يريد السلوك الحق. .

ويذكر العلماء: أن وجود نموذج أخلاقى بشرى هو أعظم حافز لمن يريد أن يبوئ للأخلاق فى نفسه محلا كريما، وأن يبذل جهده، وأن يظل على جهاده.

لأن أمله فى تحقيق غايته ليس مستحيلا، كما أنه ليس بعيدا، والتهمة فى عدم تحقيق هذه الغاية لم تعد فى استحالتها أو بعدها، ولكن فى قصور الجهد المبذول من أجلها.

ذلك يدفعه إلى بذل المزيد من الجهد، وسواء حقق فى نفسه المثل الأعلى أو قاربه فإن فردا يجعل هذا غايته، لهو فرد عالى الهمة، عظيم الخير والبر.

وكل فرد يستطيع أن يحقق فى نفسه قدرا أكبر من التأسى بهؤلاء المثل البشرية العالية، يصبح بدوره أسوة وقدوة لمن لم يبلغ مبلغه.

فالسلوك الإنسانى على اختلاف أنماطه، وتباين أغراضه، وأوصافه. يعتبر سلسلة من العمليات المتتابعة المتتالية، وبشكل يجعل من مجموعها صيغة فعلية واحدة، تؤدى غرضها بعد أن تتجسد حقيقة سلوكية.

فالفعل - أى فعل يقوم به الإنسان - يمر بمراحل متعددة، تبدأ من داخل الذات الإنسانية، وتنتهى إلى خارجها، وحتى تكتمل عناصر وجوده النفسى، والفكرى ليتخذ مرحلة السلوك الفعلى فى الحياة.

ويقوم على: أعمال الإنسان الإرادية المتجهة نحو غاية معينة مقصودة فالفعل يتحدد تخطيطه، ويكتمل تصوره، وتصور الغاية المستهدفة له، قبل أن يحتل موقعه فى الحياة العملية. .

ولأهمية الفعل والسلوك الإنسانى. اعتنى الإسلام بتنظيم عناصر الفعل والسلوك ووضع المقاييس والموازين القادرة على جعل الفعل محققا للخير والسعادة. .

وبإنعام نظر نلاحظ . . أن السلوك الإنسانى يعتمد على أمور أهمها : (المثير، والغاية، والنية، والـقصد) ولكل من هذه الأمور أثره فى توجيـه السلوك، والفعل الإنسانى .

فالمثيـر هو المنبه أو المحرك الذى يوقظ فى نفس الإنسان الإحـساس والاتجاه نحو فعل من الأفعال . فالمثيـر أو المنبه ينحصر دوره فى لفت النظر، وتحريك قوى الإنسان .

فكل موضوع يلقى باستجابة عند الإنسان هو بالنسبـة إليه مثير، ومنبه يدفعه نحو اتخاذ موقف معين .

ولا يمكن للمـثـير أن يؤدى دوره فى تـقرير الموقف الإنـسانى، أو إحـداث سلوك معين . إلا بالاعتماد على :

- الإحساس بالمثير عن طريق وسـائل الحس، والأدوات الحسية، التى تجمع المعلومات الحية .
- حدوث الإثارة الداخلية فى النفس الإنسانية بعد شعورها بالحاجة إلى هذا الشىء، فيستجيب الإنسان لهذه المؤثرات، وينفعل بها .
- اتخاذ الموقف الإرادى وإصدار الأوامر الذاتية مع موضوع الإثارة . .

وعلى ضوء هذا المفهوم يبنى الإسلام موقفه هذا على أساس منطلق عقدى، وموضوعى، منسق .

فالمنطلق الـعقدى يقـوم على أساس الإيمان بوجود عـلاقة وثيـقة بين ترتيب المسئولية والجزاء على الفعل الإنسانى وبين عدل الله سبحانه .

لهذا أولى الإسـلام أهمية كـبرى لكل عنصـر من العناصر التى تتـعامل مع المثير، فنظمه ووضع الضوابط والمناهج التى توجهه نحو الخير .

وانطلاقا من هذا الاهتمام بدور الحافز والمثيـر وضع الإسلام قواعد انضباطية للاحتراس من وجود المثيرات الشاذة، والمحفزات نحو الفساد .

وتفاديا لوقوع الإنسان تحت تأثير هذه المحفزات الشاذة وضع الإسلام الموازين والمقاييس لانضباط الكلمة، والفعل، والموقف الإنسانى .

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء، الآية رقم ٣٤].

وبذلك كرس الإسلام كل منهاجه لإيجاد دوافع الخير، ومحفزات الإصلاح، والتكامل الإنسانى، واستئصال كل وسائل الدفع، والإثارة نحو الفساد والسقوط السلوكى. فالإنسان عندما يواجه المثير، والمحفز بحرية واختيار. يستطيع أن يقرر الموقف الذى يختاره، وينوى الفعل الذى يريده فيتجه نحوه.

وانطلاقا من هذا المفهوم جاءت الشرائع لتغيير واقع الإنسان، وتبدل صيغة حياته، ولقد فكر الإنسان منذ القديم فى أشكال السلوك التى ينبغى أن تكون للإنسان شرعة ومنهاجا. فتعددت لذلك المناهج وتغابرت.

ولما كانت الأشكال السلوكية إما هى فى الحقيقة صدى للدوافع إليها، فقد ارتقى البحث إلى تلك الدوافع، واختلفت الآراء فى تقدير الدافع الذى ينبغى أن يكون حتى يؤدى إلى السلوك الذى ينبغى أن ينتهج.

فذهب أبيقور اليونانى: إلى أن مبدأ اللذة الشخصية هو الذى ينبغى أن يدفع إلى سلوك، فيتكيف شكله بما يحقق اللذة..

ويقول كانت: (إن الشعور بالواجب هو الدافع الأوحد إلى سلوك إنسانى يتصف بالأخلاقية).

وذهب دوركايم إلى أن الدافع الأرفع هو نفع المجتمع يقول: فإننا نلقى من داخلنا الأوامر التى يفرضها المجتمع علينا، وينبئنا بها عما يجب علينا أن نفكر به أو أن نحققه فى أعمالنا وسلوكنا.

أما موقف الإسلام فى معالجة السلوك الإنسانى، فيغاير كل المذاهب الإنسانية سواء من حيث الشكل أو من حيث الدافع..

أما من حيث الشكل فإن الإرادة الإلهية هى المحدد الوحيد لأنماطه الراسمة لحدوده... فكل مناحى التصرف الإنسانى بينت الأوامر والنواهى الإلهية الصفة التى ينبغى أن يستند عليها على نحو من الشمول والاستيعاب.

وذلك: سواء ببيان الكيفيات ذاتها كما هو ظاهر فى العبادات، والأحوال الشخصية بالخصوص.

أو بيان الأصول العامة والقواعد الأساسية التى ينبغى أن يستند عليها كل ما لم تحدد كيفيته.

إن التحديد الإلهى للسلوك الإنسانى لهو من باب الرحمة للإنسان. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء، الآية رقم ١٠٧]. فغايته خير الإنسانية وسعادتها.

أما من حيث الدافع فإن الإسلام يرى: أن لا دافع ينبغى أن يكون سوى الشعور بوجوب تطبيق الأمر الإلهى. وهذا الشعور إنما هو حصيلة لتصديق جازم بصورة ذهنية قوامها وجود إله واحد، متصف بصفات الكمال. يرسل الأنبياء، والرسل للناس مبشرين ومنذرين.

وهذه الصورة متأتية بالخبر الإلهى الموحى به وهى ما يطلق عليه اسم العقيدة.

ولا يخفى على الإنسان ما للعقيدة من أهمية بالغة فى تأثيرها على الفرد فى جميع مراحل حياته... وفى كتاب عقائد المفكرين وتحت عنوان: ما هى العقيدة الدينية؟ يقول الكاتب عباس محمود العقاد: (إنما نعنى بالعقيدة الدينية طريقة حياة، لا طريقة فكر، ولا طريقة دراسة، إنما نعنى بها حاجة النفس كما يحسها من أحاط بتلك الدراسات ومن فرغ من العلم والمراجعة ليترقب مكان العقيدة من قرارة ضميره...

إنما نعنى بها ما يملأ النفس لا ما يملأ الرءوس، أو يملأ الصفحات).

والعقيدة الإسلامية: عقيدة استعلاء من أخص خصائصها. إنها تبعث فى روح المؤمن بها الإحساس بالعزة من غير كبر، وروح الثقة فى غير اغترار، وشعور الاطمئنان فى غير تواكل..

حقيقة أساسية من حقائق الوجود، وهى فى ذاتها كفيلة بتعديل القيم والموازين، وتعديل الحكم والتقدير، وتعديل المنهج والسلوك، وتعديل الوسائل والأسباب).

وإننا إذا ما قارنا هذا الموقف الإسلامى بمواقف المذاهب الفلسفية تبينت لنا عدة نقاط يختلفان فيها:

منها.. أن شكل السلوك فى تلك المذاهب تحديده ذاتى نابع من الإنسان، وهو لذلك ليس محدد المعالم مسبقا، بل هو رهين ما يسفر عنه الدافع.

أما فى الإسلام فإن مصدر التحديد علوى هو الله تعالى. ولذلك كان التحديد مضبوطا مسبقا.

ومنها.. أن الدافع فى تلك المذاهب هو دافع ذاتى صرف. ولذلك فإنه تغاير بين مذهب وآخر.. أما فى الإسلام فإنه باعتبار محتواه الذى هو تلك الصورة الذهنية الغيبية المتعالية المصدر.

إذ أنه من إعلام الله تعالى، ولذلك فهو موحد عند الجميع، ولكن باعتبار تبنى الأفراد له، وتحملهم إياه يصبح حاملا لعنصر ذاتى من هذا الوجه..

ومنها.. إذا كانت عامة المذاهب الفلسفية تجعل الغاية من السلوك شكله، بحيث إنه إذا تحقق الشكل الذى يقتضيه الدافع فقد حصل المبتغى، وإن لم يكن صادرا فعلا عن ذلك الدافع.

فإن التعاليم الإسلامية قد جعلت همها فى الربط بين الدافع والسلوك فجعلت الصلة بينهما صلة عضوية، حتى أن تحقق أحدهما دون تحقق الآخر لا يعتبر شيئا مذكورا.

وقد عبر ابن خلدون عن هذا المعنى فقال: (أعلى مراتب الإيمان حصول كيفية من ذلك الاعتقاد القلبى للسان وما يتبعه من العمل مستولية على القلب فيستتبع الجوارح وتندرج فى طاعتها جميع التصرفات، حتى تنخرط الأفعال كلها فى طاعة ذلك التصديق الإيمانى).

فأى سلوك لا يكون دافعه الإيمان فإنه لا يعتبر سلوكا مقبولا من الوجهة الإسلامية وإن كان فى ظاهره يلائم الأوامر والنواهى الإلهية.

فالسلوك لكى يكون سلوكا مقبولا معتدا به فى التصور الإسلامى لا بد أن يتحقق فيه شرطان:

أولهما: أن يكون ثمرة للعقيدة متأتيا من دفعها.

وثانيهما: أن يكون مطابقا للحدود التى رسمتها التعاليم الإسلامية من حيث الشكل.

ومن الأمور التى يعتمد عليها السلوك الإنسانى: الغاية..

ولا شك أن لكل فعل إرادى مقصود للذات الإنسانية غاية أساسية تكمن خلف السعى نحوه، وتكون غرضا ومطلبا مقصودا له. قال تعالى: ﴿**وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ... ﴿١٤٨﴾**﴾ [البقرة، الآية رقم ١٤٨].

ولولا الغاية المستهدفة هذه لكان الفعل الإنسانى عبثا لا مبرر له، ولعبا لا داعى لوجوده.

وقد استنكر القرآن الكريم العبث، واللهو، واللعب. وقرر مبدأ الغاية فى كل فعل من أفعال الله سبحانه ليوحى للإنسان بحذف الفوضى والعبث من حياته، وليربط كل أفعاله بغايات واضحة، ويحدد غاية مسيرته. قال تعالى: ﴿**... رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾**﴾ [آل عمران، الآية رقم ١٩١].

وقال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعبين ﴿١٦﴾**﴾ [الأنبياء، الآية رقم ١٤]، وقال تعالى: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾**﴾ [المؤمنون، الآية رقم ١١٥].

فلذلك كان قياس الفعل بقياس غايته؛ لأن الفعل ليس هو الحقيقة المطلوبة بذاتها، بل هو الوسيلة والأداة التى يحقق الإنسان بها غايته..

وسواء كانت فى نفس الفعل أو منفصلة عنه فإن قصد الإنسان، ونيته، ومساعيه تتجه دائما لتحقيق الغاية، والذى يطلب العلم والمعرفة، ويسعى جاهدا نحوهما إنما يستهدف غاية تكامل الذات، ورفع النقص الكامن فى الجهل عنها كغاية بعيدة.

وتحدد الغاية من القصد والفعل الإنسانى حسب وعى الإنسان وتصوره للحياة والعالم من حوله. لذلك عبر القرآن عن هذه الحقيقة وصورها أدق تصوير. فقال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ... ﴿١٤٨﴾﴾ [البقرة، الآية رقم ١٤٨].

فجاء تشخيص القرآن هذا ليلقى الضوء على مسار الإنسان، وليكشف تعدد الغايات والاتجاهات الإنسانية المتصارعة وليحدد بدعوته هذه الوجهة التى يجب أن يتجه نحوها الإنسان، والغاية التى يجب أن يسعى إليها ويتسابق من أجل الفوز بها؛ ليركز اتجاهه وغايته فى كل أفعاله ونواياه فى غاية واحدة، وهى فعل الخير، والاتجاه إلى الله مصدر الخير، والكمال فى هذا الوجود، والتسامى نحو تحصيل قربه ومرضاته.

ويستطيع الإنسان المؤمن أن يجعل أعماله ونواياه وحدة غائية متجهة إلى الله سبحانه، فيوجه أعماله المباحة أيضا كالأكل، والشرب، والاستمتاع نحو غايته القصوى وهى مرضاة الله سبحانه، فيضع أفعاله هذه وأمثالها فى موضع الاستعداد الجسدى، والنفسى للعبادة والمعرفة بالله، فتتحول من فعل غايته اللذة والاستمتاع إلى عمل توصلى يسعى نحو غايته الكبرى ومرضاة الله.

قال الله تعالى على لسان إبراهيم: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام، الآية رقم ٧٩].

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ... ﴿٢٠﴾﴾ [آل عمران، الآية رقم ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ... ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء، الآية رقم ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ ... ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة، الآية رقم ١١٢].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد، الآية رقم ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ... ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف، الآية رقم ٣٨].

ومن هذه الآيات وما جرى مجراها، يدرك الإنسان أن القرآن الكريم حصر وجهة الإنسان المسلم وغايته فى طلب الخير، والاتجاه إلى الله تعالى؛ ليصنع الإنسان الخير ويقتلع المقاصد والغايات الشريرة من دنيا الإنسان.

وقد اعتبر الإسلام النية روح العلم، ومقياس تقويمه، فبالنية تقاس الأعمال، وبالمقاصد توزن الأفعال، وعلى أساسها تصنف وتقوم.. يقول رسول الله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه**» أخرجه البخارى.

فالنية: الإرادة، وانبعاث النفس بحكم الرغبة والميل إلى ما هو موافق للغرض، إما فى الحال وإما فى المآل..

فالمحرك الأول هو الغرض المطلوب، وهو الباعث. والغرض الباعث هو المقصد المنوى، والانبعاث هو القصد والنية، وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء نحو العمل.

فالإسلام لم يعط الفعل قيمة ولا أهمية مجردة عن النية والقصد فى حال تقويمه عن الفعل، وتقديره للفاعل؛ لذلك كانت الأعمال مشرعة لتحقيق النيات.

ويقول ابن المنير: (كل عمل لا تظهر له فائدة عاجلة بل المقصود به طلب الثواب فالنية مشترطة فيه وكل عمل ظهرت فائدته ناجزة، وتعاطته الطبيعة قبل الشريعة لملاءمة بينهما فلا تشترط النية فيه إلا لمن قصد بفعله معنى آخر يترتب عليه الثواب).

وبإمعان النظر فى دور النية والقصد فى تقويم الفعل، وتحديد نتيجته نستطيع أن نكتشف مفهوم الإسلام، ونظرته العامة حول هذا الموضوع الخطير الأثر فى حياة البشرية.

والمفاهيم الأساسية حول هذا الموضوع تتركز فى النقاط التالية:

- إن النية هى صورة الذات التى تتجسد فى الفعل خيرا أو شرا، وإن الفعل لا يعبر بوضعه المنظور عن حقيقة الذات الإنسانية، بل النية هى اللسان الناطق والمعبر عن طبيعة الذات واتجاه غايتها.

- إن الأعمال تقوم على أساس النيات ولا قيمة لعمل بلا نية.

- إن الجزاء وقبول العمل مرتبط بالنية لقوله ﷺ فى الحديث السابق الذكر: «ولكل امرىء ما نوى».

وهكذا يهتم الإسلام ببناء صرح العمل الإنسانى على أساس النوايا، والمقاصد الخيرة.

ويأتى تأكيد الإسلام واهتمامه بالقصد والنية منبثقا من إيمانه بوجود حقيقتين متعايشتين فى عالم الإنسان، وهما:

- أولا: الذات الإنسانية، ووضعها الداخلى.

- ثانيا: العمل الصادر عنها ونسيجه الخارجى الذى يشكل محيط الحياة، والسلوك، ويستوعب العلاقات والروابط الظاهرة بين الناس.

ويأتى اهتمام الإسلام وتركيزه على بناء الذات الإنسانية من داخلها قائما على إيمانه بأن أنماط السلوك إنما هو تعبير عن محتوى الإنسان الداخلى.

فإن لم تشكل الذات الداخلية، وتبنى بناء خيرا وسليم. لا يمكن أن يكون البناء الخارجى إلا هيكلا خاويا، وشباكا من النفاق، والوباء التى تتربص بالإنسان للإيقاع به؛ لذلك جاء قوله تعالى معبرا عن هذه الحقيقة ومحذرا منها: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ...** ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة، الآية رقم ٢٦٤].

أما سر الموقف الإسلامى هذا وعدم إقراره بتمثيل الفعل للفرد الفاعل إلا إذا قام على قصد ونية؛ فلأن الفعل ما هو إلا نتاج موقف إنسانى داخلى.

ولم يأت وجوده كفعل متجسد إلا بعد أن اكتمل وتحددت غايته فى داخل الإنسان، كنتاج لعوامل ذاتية أساسية هى:

١ - المعرفة بالفعل، وتصور أبعاده وغاياته.

٢ - وجود الميل والرغبة النفسية لهذا الفعل وحصوله قناعة بتطابق الفعل مع غاية النفس ومراميها المطلوبة.

٣ - اتخاذ القرار الإرادى الحاسم بإحداث الفعل، وتحريك مختلف القوى الجسدية، والفكرية والنفسية للشروع بالفعل.

فانطلاقا من هذه الحقيقة بنى الإسلام موقفه المؤمن بأن روح القصد هو روح الفعل وحقيقته.

ويربط الإسلام باهتمام بالغ... العلاقة بين هذا الوعاء والشكل المنظور للفعل. بين القصد والغاية؛ ليتأكد من تطابقه مع العناصر الذاتية التى يصنع منها الفعل بحيث يأتى الفعل صياغة حية وتعبيرا أمينا عن الدوافع والمقاصد.

فإن مارس الإنسان أفعاله ومواقفه على هذا الأساس النزيه المخلص، كان الفعل بمثابة حقيقة الذات الإنسانية وكان فاعله يستحق المجازاة عليه؛ لأنه يمثل موقفه وإرادته.

وبهذه التوعية يريد الإسلام أن يجعل سلوك الفرد المسلم قائما على أساس الاختيار اليقظ الواعى، بعيدا عن العادة الآلية التى تجعل من السلوك الإنسانى سكونا رتيبا لا يعبر عن وعى الإنسان وارتباطه بخالقه.

وكم هو سهل هدم الموقف الإنسانى والانسحاب من الفعل مهما يكن خيرا وضخما، عندما ينبنى هذا الفعل على أساس من الآلية والاعتياد بعيدا عن الوعى، والقناعة، والاتجاه الذاتى اليقظ..

لذلك حرص الإسلام على تثبيت قواعد الفعل فى أعمال الذات الإنسانية.

إن تحديد أشكال السلوك التى ينبغى أن تسلك، وتعيين الدافع الذى ينبغى أن يدفع إليها. كانت المشكلة الأساسية التى زلت فيها عقول البشر، وأتى فيها الوحى بالحل الأمثل، إلا أن هناك مشكلة أخرى متعلقة بها، ولا تقل عنها أهمية، وهى المتمثلة فى السؤال التالى: كيف يصبح الدافع مؤديا فعلا إلى السلوك العملى؟

ومن البين: أن هذه المشكلة تزداد أهمية بازداد أهمية الصلة بين الدافع والسلوك حتى تبلغ الذروة فى التصور الإسلامى باعتبار أن تلك الصلة صلة عضوية بين العقيدة والسلوك.

لقد بنى كثير من الفلاسفة والمفكرين نماذج نظرية من السلوك الإنسانى الفردى والجماعى.. كالجمهورية التى تصورها أفلاطون، والمدينة الفاضلة التى بناها الفارابى.

وربما كانت بعض البناءات حاملة لعناصر من الحق، إلا أن أصحابها لم يوفقوا فى كثير من الأحيان فى توفير العنصر النفسى الذى يجعل الناس يعيشونها واقعا، لا على المستوى الفكرى فقط.

ولقد طرح (كانت) هذه المشكلة بشكل جدى، حيث وضع السؤال التالى: إذا كان الواجب معنى عقليا صرفا فكيف يمكن أن يكون دافعا نفسيا إلى العمل ثم انتهى فى الإجابة إلى أن عاطفة الاحترام هى الواسطة التى تجعل الواجب دافعا إلى العمل.

ولكن بيانه هذا يبقى مغرقا فى التجريد ولا يطرح عملا مفيدا.

أما الإسلام فإنه لم يكتف برسم المنهج السلوكى وبيان الدافع الذى ينبغى أن يؤدى إليه، ولكنه عمل على تهيئة النفوس وإعدادها إعدادا عمليا لتتحول المبادئ النظرية إلى واقع عملى، وبالتالى ليرتبط الدافع بالسلوك ذلك الارتباط المبتغى.

ومن الأساليب التربوية المتبعة فى ذلك:

أولا: التركيز على تقوية التصديق بالمفاهيم المتعلقة بالعقيدة والعمل لتعميق تلك المفاهيم حتى تبلغ مرحلة السيطرة على النفس، فتفيض الجوارح عندئذ بالسلوك فيما يشبه التلقائية، وتحصل هذه الدرجة من التصديق برؤية ما فى مبادئ العقيدة من عناصر الحق والصدق بعد النظر والتأمل والتدبر.

وقد كرس القرآن الكريم شطرا كبيرا من آياته لتوجيه الإنسان نحو الشواهد التى تبصر بصحة العقيدة، وهى الشواهد التى تحفل بها النفس الإنسانية.

إن الفكرة متى كانت تحمل الحق ومتى ظهر ذلك الحق ناصعا للنفس، واقتنعت اقتناعا ذاتيا، كانت دافعة إلى ما تقتضيه من العمل.

ولذلك فإن التعاليم الإسلامية أطنبت فى تبصير النفوس بالحق فى العقيدة، ودعتها إلى الاقتناع ذاتيا، فكان ذلك أسلوبا تربويا عمليا لجعل العقيدة دافعة إلى السلوك المستقيم.

ثانيا: تربية المسلم على الشعور المستديم بالحضور الإلهى فى كل ما يأتيه من الأعمال وذلك بالإحساس الداخلى بأن كل إبقاء لفعل أو انتهاء عن فعل، إنما هو تحقيق لمعنى الطاعة المطلقة لله تعالى.

وقد جاء التعبير عن هذا المعنى فى قول رسول الله ﷺ حينما سئل عن الإحسان فقال: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١).

فمن بلغ إلى حقيقة الإحسان لم يقدر أن يلتفت إلى أحد سوى الله تعالى؛ لأنه مشاهد له بقلبه ومحال أن يراه ويشهد معه سواه.

ويرى كثير من الباحثين: أن هذا المعنى قد تمثل فى مبدأ النية.. ذلك المبدأ الإسلامى الذى تقاس به الأعمال. والنية هى دالة التلازم بين الدافع أو الباعث - أى العقيدة - وبين العمل السلوكى.

وجعل الإسلام هذه النية شرطا فى قبول الأعمال جميعا إنما هو أسلوب تربوى عملى حى. يجعل المسلم دائب الربط بين عقيدته وبين عمله فيتكون له ذلك خلق من إجراء الأفعال الظاهرة وفق الصورة العقدية.

بل إن العمل الذى تتحقق فيه النية ربما أصبح هو نفسه عاملا - بكثرة التكرار - على تقوية الإيمان وتعميقه.

كما يفيد قوله تعالى: ﴿ ... **وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا** ﴿٦٦﴾ ﴾ [النساء، الآية رقم ٦٦]. لكان خيرا لهم فى مصالحهم، وأشد تثبيتا

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم فى الإيمان رقم ٨ من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

لهم فى إيمانهم، فإن الامتثال إيمانا واحتسابا يتضمن الذكرى، وتصور احترام أمر الله، والشعور بسلطانه، وإمرار هذه الذكرى على القلب عند كل عمل مشروع، يقوى الإيمان ويثبته، وكلما عمل المرء بالشريعة عملا صحيحا، انفتح له باب المعرفة فيها، بل ذلك مطرد فى كل علم.

ثالثا: الحث على العلم والدعوة إليه دعوة جعلت تحصيله فرضا عينيا فى بعض وكفائيا فى بعض آخر. ثم ربط هذا العلم بمفهوم خاص هو التصور الذهنى للحقائق التى يقترن بالسلوك العملى.

ولذلك فإن العلم الذى هو مجرد التصور ليس هو العلم المطلوب إسلاميا.

ولقد عبر الشاطبى عن ذلك المعنى بقوله: (كل مسألة لا ينبنى عليها عمل فالخوض فيها خوض فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعى).

وإن هذاالربط بين الصورة والعمل فى مفهوم العلم مع الترقى فى طلبه إلى درجة الوجوب لهو تمرين تربوى من شأنه أن يجعل الإنسان ينزل من أفكاره ما يجرى عملا على جوارحه.

وإذا كان أول علم دعى الإنسان إلى تحصيله هو العلم بالعقيدة، أصبحت هذه التربية عاملة على أن تصبح العقيدة دافعة إلى تحقيق السلوك بمقتضى الشريعة.

لقد جاء الإسلام ليكون منهج حياة، والحياة عمل وسلوك، ولذلك اعتبر السلوك هو الثمرة التى يسعى إليها.

والإنسانية فى أشد الحاجة إلى السلوك الإسلامى، فى حاضرها ومستقبلها، تنشد الإسلام فتجد فيه مبتغاها من الأوامر والنواهى، والآداب، والفضائل..

والإسلام جاء إلى الإنسان ليؤكد له المعانى الإنسانية، ويوضح له معالم الطريق، ويوقظ فيه الأحاسيس والمشاعر.

والمجتمعات الإنسانية تعانى من تراكم الوثنيات، وعفن الانخراط فى سلك الذين ضلوا.. لذا كانت الحاجة إلى الإسلام ضرورية ومهمة.

ضرورية للإنسانية كلها؛ لأنه لا أمن ولا طمأنينة ولا استقرار، إلا فى ظل الإسلام.. وضرورية للمجتمعات الإسلامية خاصة؛ لأن الإسلام ليس شكلا من

الأشكال ولا دعوة يدعـيها هذا أو ذاك، أو مظاهرة مـن المظاهرات يقودها ذاك أو هذا وإنما سلوك عـملى تربوى، يدفع إلى العـمل الجاد، الذى يميـز المجتـمعـات الإسلامية بالعطاء، والبناء المثمر، الذى يفيد الإنسانية.

إن الأمة الإسلاميـة وهى تخطو فى وعى، جدير بمجتمعاتهـا أن تتسابق فى الاعتماد على النفس، والاعتداد بالشخصية الإسلامية..

ولا يخـفى: أن الوعى بقضـايا الإسلام والمسلمين، بات ضـروريا فى وقت تتكالب فيه أمم الأرض مسعورة على مجتمعات المسلمين، وكل ما هو إسلامى.

والوعى بقضـايا الأمة يقـتضى أن نعمـل بكل ما نملك من إمكانات علمـية ومادية على توحيد صفوف المجتمعات الإسلامية ونترك التعصب المذهبى الأعمى، الذى يعمل على تقطيع أمتنا لتكون مسخا شائها تابعا ذليلا..

وكتاب منازل السائرين: للإمام شيخ الإسلام عبد الله الأنصارى الهروى من أعظم الكتب التـى جاءت فى بـيان منازل الـسائرين بـعد كـتـاب الإمـام الحكيم الترمـذى: «منازل العباد من العـبادة» تحقيق الدكـتور أحمـد السايح وطبع المكتب الثقافى بالقاهرة.

وقد اهتم العلماء بشـرح كتاب شيخ الإسلام عبـد الله الأنصارى الهروى، فشرحه الإمام ابن القيم فى كتابه: «مدارج السالكين» كما شرحه الشيخ أبو الغيض المنوفى فى كتابه: «التمكين».

وكتاب «منازل السائرين» مهم لمن يبحثون عن منازل السائرين، ولمن يريدون الطريق السوى القائم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ومهم للعلماء والـباحثين والدارسين الذين ينقبون عن الأصـالة لينطلقوا فى وعى وأمن...

والله ولى التوفيق

أ.د. أحمد عبد الرحيم السايح المستشار توفيق على وهبه